

الكتب والكتّاب والقراء

في جمهوريات روسيا

ما تنشره المطابع وما يطالعه القراء

هل تصدق لهما القارىء الكريم انه طبع في روسيا في سنة ١٩٣١ ترجمة كل مؤلفات العلامة دارون نيبم منها في خلال سنة واحدة عشرين ألف مجموعة وان خمسة آلاف نسخة من منطق هيجل قدمت في خمسة ايام . وان مجموع النسخ التي بيعت في سنة ١٩٣٢ في جمهورية روسيا وحدها من الكتب والرسائل الجديدة بلغ ستمائة مليون نسخة ؟ انظر اذن ما يقوله الثور بدسليد (سدن وب) وهو من احرص الكتّاب على توثيق الحقيقة وليرادها

كان لنين يرى ان الكتب والرسائل والمجلات ، فاجية خطيرة الشأن ، من بيضة الانسان الاجتماعية . فيجب ان لا تترك للتسفة تتصرف فيها ، ولا لشركات الممولين يستغلونها لتفادتهم الخاصة ، ويضلون بما ينشرونه من المؤلفات اذهان الشعوب السوفيتية . لذلك جعل الحكومة السوفيتية للمشرقة العليا على كل ما يطبع وينشر في روسيا من الكتب والرسائل وجعل دور النشر ملكاً للامة كغيرها من المرافق العامة ، يضاف ما تمنحه من الربح في تجارتها الى ريع الدولة وقد خبطت الحكومة في هذه الناحية خطرات الجيايزة ، في خلال ١٣ سنة من يوم انشئت دار النشر الخاصة بالدولة في موسكو (وتعرف بالاوجيس Ogiis) سنة ١٩١٩ الى آخر السنة الماضية . ففي سنة ١٩١٤ كان مجموع النسخ التي تباع في روسيا من الكتب والرسائل الجديدة لا يزيد على ١٣٠ مليون نسخة . وظلّ التقدم بطيئاً خلال السنوات العشر الاولى بعد الاقلاب (١٩١٧ - ١٩٢٨) ولكنه زاد زيادة كبيرة جداً في خلال السنوات الاربع الاخيرة ففي سنة ١٩٣٢ بيع من هذه النسخ ثلاثة اضعاف ما بيع سنة ١٩٢٨ ويتقد ما ينتظر بيعه هذه السنة بثمانية اضعاف ما بيع سنة ١٩٢٨ وقد ذكر الثور بدسليد في مقالة له في مجلة اتاريخ الجاري (مارس ١٩٣٣ ص ٧٩٧) ان دور النشر والنشر في جمهورية روسيا (دون غيرها من الجمهوريات السوفيتية كاوكرانيا ، التي تألف منها اتحاد الجمهوريات السوفيتية) اخرجت وابتعت في سنة ١٩٣٢ اكثر من ٦٠٠ مليون نسخة من الكتب والرسائل الجديدة البالغ عددها نحو ٤٠ ألفاً وان متوسط عدد للملازم (المزمنة ١٦ صفحة) في كل نسخة منها بلغ خمس ملازم

الغربية والجنوبية فقد كانتا مشرفتين على النيل ثم نرى القتال يتألف بين الطرفين من أن إلى أن يغير جدوى للعرب لوفرة معدات الحرب عند الروم وقلتها عند أعدائهم، ودامت الحال على هذا المتوال نحو ثمانية شهور ساور التسق امير المؤمنين (الفاروق) في خلالها على جيوش المسلمين التي رأى قوادها ان الحيلة اجدى من القوة فعمدوا اليها، وكان الامير « ازيير بن العوام » رئيس اركان حرب عمرو هو المتصد لها . فإنه خدع الحامية وقادها وتركها في احدى الليالي تمام هادئاً مطمئنة الى ان ادبر النصف الأول من الليل ثم أتى بسلم صعد عليه حتى بلغ قمة سور الحصن وعلق به البعض من اتباعه ومن التمسوا المحذوروا الى احد ابواب الحصن ^(١) قتلوا حراسه ثم فتحوه فندفعت منه بقية الجيش وتغلقت في داخل الحصن واعملت سيوفها في رقب الحامية التي اخذت على غرة فتسابق رجالها الى الفرار ووطد العرب اقدامهم فلم تكن الا هزيمة حتى علا التكبير والتهليل وبأدى بشير العرب (نصر من الله وفتح قريب) لم يكن المقوقس حاضراً تلك المناجاة التي اعقبها الهزيمة الساحقة . بل كان قبلها قد نقل مركزه الى جزيرة الروضة هرباً من تلك الكارثة التي كان قد توقع حدوثها فاستعد من قبل لها فركب سفينة اقلته من داخل الحصن الى الجزيرة بمحاذاة ذلك الباب التاريخي المعروف بالباب الحديد والذي تعلو برجيهِ الكنيسة المعلقة حالياً ^(٢)

ودارت مناظرة ظريفة بين المقوقس وبين رئيس الوفد العربي الذي ارسله عمرو بن العاص الى الاول اجابة لطلبه للمفاوضة في العلع وذلك قبل سقوط الحصن وقد دلل اختيار اعضاء الوفد ورئيسه على علو كعب في السياسة من جانب عمرو بقدر ما دلت لهجة « عبادة بن الصامت » رئيس الوفد في مخاطبة المقوقس على مبلغ علو النفس والاعتداد بها ركب عبادة - وكان طوله عشرة اشبار - السفن الى المقوقس ودخل عليه مع اصحابه فباهه المقوقس لسواده فقال « تحسوا عني هذا الأسود وقد تموا غيره يكلمني » فقالوا « ان هذا

(١) (عبد بن دقاق) و(الفرزي) وغيرهما من المؤرخين على اختلاف اصنافهم ابواب الحصن وترى بعضهم ان العرب دخلوا الحصن من باب الجنوب الذي هرب المقوقس منه والذي تقوم الآن على برجي الكنيسة المعلقة وذلك رغباً عن ان موقعه من النيل يحول دون السهول منه والرجح المنقول جداً ان العرب دخلوا الحصن من باب رئيسي مفتوح في جداره الشمالي كمنبت آثاره لجنة حفظ الآثار العربية سنة ١٩٢٥ م وهذا الباب لم يسه احد من المؤرخين من ابواب الحصن المروقة مع انهم ذكروا امتاله قبل ان ارت تصنع من هذا ان ابن دقاق والمفرزي كانا يمتدان في تدوين مؤلفاتهما على انقل دون اخطائه. هذا ما تدل فرائض اخلال عليه لان هذا الباب الشمالي تضخم كان كغيره من ابواب الحصن ظاهراً لتبيان في عهد المفرزي (٢) هذا ما اجمع عليه المؤرخون غير ان ارجح ان خروج المقوقس كان من الباب الغربي للحصن الباقي هيكلاً برجه الجنوبي الى الآن . انما يرجح اشتباهي فتلوه الآن كنيسة مدرج حرجين

الاسود افضلنا رأياً وعلماً وهو سيدنا وخيرنا والمقدم علينا نرجع جميعاً الى رأيه وقوله وقد رأسه الامير علينا ونرى ان لا يخالف رأيه وقوله « فقال المقوقس لعبادة » تقدم يا اسود كلي برفق « فتقدم بحره عبادة فقال ما ملخصه : —

قد سمعت مقاتلك وان فيمن ركت من اصحابي الف رجل اسود كلهم اشد سواداً مني وافضع منظرأ ولو رأيتهم لكنت ارهب لهم منك لي وانا وقد وليت وادبر شبابي ومع ذلك ظني بحمد الله ما احاب مائة رجل من اعدائي لو استقبلوني جميعاً وكذلك اصحابي وذلك لأن رغبتنا في الجهاد في سبيل الله لا رغبة في الدنيا وما يبالي احدنا اكن له فنظار من ذهب ام كان لا يملك الا درهماً لأن غاية احدنا من الدنيا اكله يد بها جوعه لليله ونهاره وشتمه يلتحفها لان نعم الدنيا ليس بنعيم وانما التعميم والرخاء بالآخرة

فلما سمع المقوقس ذلك قال لاصحابه « هل سمعتم مثل كلام هذا الرجل فظ لقد هبت منظره وان قوله لأهيب عندي من منظره » ثم اقبل المقوقس على عبادة بن الصامت فقال له

« ايها الرجل السامع قد سمعت مقاتلك وما ذكرت عنك وعن اصحابك واخبرك انه قدم الينا لقتالكم جيش من الروم لا يحصى عدد رجاله معروفون بالنجدة والشدة لا يبالي احدكم من لقي ومن يقاتل وانا لنعلم انكم لن تقدروا عليهم ولن نطيعوهم لنضعفكم وقتلكم وقد اقم بين اظهورنا شهوراً وانتم في ضيق وشدة من معاشكم وحالكم ونحن نعتف عليكم لئلا ما يديكم وتطيب انفسنا ان نسالكم على ان نعطي كل رجل منكم دينارين واميركم مائة دينار وخليفتكم الف دينار فتبعضونها وتصرفون الى بلادكم قبل ان يغشاكم مالا ملافة لكم به »

فقال عبادة بن الصامت : — « يا هذا لا تفرن شك ولا اصحابك. اما ما تخوفنا به من كثرة عدد الروم وشدهم وانا لا نخوي عليهم فلم يري ما هذا بالذي تخوفنا به ولا بالذي يتينا عما نحن فيه . وان كان ما قلتم حقاً فذلك والله ارفع ما يكون لنا في قتالكم لان ذلك اعذر لنا عند ربنا اذا اقدمنا عليه فان قتلنا عن آخرنا كان ذلك امكناً لنا في رضوانه وجنته ونكون منكم حينئذ على احدي الحفيين اما ان تعظم لنا بذلك غيبة الدنيا ان ظفرنا بكم ، او غيبة الآخرة ان نقترب منها ، وانها لأحب المصلتين اليها بعد الاجتهاد منا وان الله عز وجل قال لثاني كتابه : (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين) . وما منا رجل الا وهو يدعو ربه صباحاً ومساءً ان يرزق الشهادة وان لا يرده الى بلده ولا الى ارضه ولا الى اهله وليس لأحد منا هم فيها خلفه وقد استودع كل واحد منا ربه اهله وولده وما همنا الا ما اماننا

« وأما قولك اننا في ضيق وشدة من معاشنا وحالنا فنحن في اوسع السعة . ولو كانت الدنيا كلها لنا ما اردنا منها لاقمنا اكثر مما نحن عليه فانظر فيما تريد فليس بيننا وبينك

الأخيلة من ثلاث فاختار ايها شئت . ولا تطع نفسك في الباطل . بذلك امر في الامير وبها امره امير المؤمنين وهو عهد المنطقى صلى الله عليه وسلم من قبل الينا . اما ان احببتم فالاسلام او الجزية فان ايتم فليس بيننا وبينكم الا المحاكمة بالسيف حتى نموت عن آخرنا او نصيب ما نريد منكم فانظروا لانفسكم »

وبعد حوار طويل بين عيادة بن الصامت وبين المقوقس من ناحية ثم بين هذا الاخير وبين اتباعه من ناحية اخرى قطعت للمفاوضة واستؤنف التتال الذي انتهى بسقوط الحصن كما اسلفنا . وما كان صفر من سنة ۲۰ للهجرة (۲۰ يناير سنة ۶۷۱م) حتى اعلن الامير عمرو ابن العاص فتح مصر فكان هذا الاعلان ايذاناً بضياع آخر وأعم درة في جبين الامبراطورية البيزنطية ، واذا كان امبراطورهم عند ما طرده العرب من سوريا قال وهو ينظر اليها من فوق ظهر سفينة السلام عليك يا سوريا سلاماً لا اجتماع بعده فاننا لا ندرى ماذا قال قواده عند ما فارقوا الحصن نادمين على ملك افراطوا في التفرط فيه

كان اول ما عني به عمرو لما اصبح امير مصر ان شيد جامعة ثم وزع ما حوله من الارض على الجماعات من التباثل المتنوعة التي تآلف منها جيشه فاخطت كل قبيلة فيها اختست به خططاً تآلف من مجموعها اول عاصمة اسلامية للديار المصرية وأول نواة للعبارة الاسلامية بها وفي الجهة البحرية من الجامع بنى عمرو داراً له وأخرى فريها لابنه عبد الله عرفت « بالدار الصغرى » تميزاً لها عن دار ابيه التي عرفت بالدار الكبرى . كذلك بنى اوزير بن العوام داراً له بمجوار دار عبد الله . وظل عمرو حاكماً لمصر الى ان عزل عنها سنة ۲۳ هـ (۶۴۴م) ثم عاد اليها سنة ۳۸ هـ (۶۵۸م) وبقي حاكماً عليها الى ان توفي سنة ۴۳ هـ (۶۶۳م)

اتمت هذه المدينة رويداً رويداً وارتقت على عهد الخلفاء من بني امية وسارت مغزاً للولاة من قبلهم وفيها ابني عبد العزيز بن مروان امير مصر من قبل اخيه الخليفة عبد الملك الاموي (دار الامارة) تعلموها قبة مذهبة شأن الامويين في تفخيم بنايتهم حتى تبرز البنايات البيزنطية التي خلفها الروم ورأهم في الاقطار التي انزعها العرب منهم ولعل دار الامارة هذه كانت اول بناية اسلامية كبيرة في مصر وصل الينا نبا زخرفها . وفي آخر لحظة من حياة الدولة الاموية قدم مصر مروان آخر خلفائها فاراً امام جيوش العباسيين التي كانت تتعقبه حتى وصلت مصر فنزل القاتلان صالح بن علي وأبو عوف بصكرهما في الشمال

الشرقي من القسطنطينية وهناك شيدوا المسكن والدور وتكون من مجموعها ضاحية جديدة
 للقسطنطينية (العسكر) وفي وسطها بنى صالح بن علي « دار امدارة » جديدة صارت مقراً
 للامراء بدلاً من دار عبد العزيز بالقسطنطينية . ثم بنى الفضل بن صالح جامعاً جديداً بجوارها
 سمي جامع «العسكر» . وبذلك انتقل مقر الحكم من قسطنطينية عمرو الى «العسكر» . ولما قدم
 احمد بن طولون والياً على مصر نزل بدار الامارة والعسكر . ولكن لما ضاقت بمسكنه وحاشيته
 بنى له قصرًا خاصاً في الميدان الذي تحت قلعة الجبل الآن . وانشأ ميداناً بين هذا القصر
 وبين الجبل القائم عليه حي طولون الآن . وحول هذا الميدان بنى قواده وعساكره اخطاطاً
 كاملة لكل قائد بعساكره خطة خاصة ومن مجموع هذه الاخطاط تكونت مدينة قائمة شمالي
 العسكر سمي «بالقطائع» وان تكن في الواقع ضاحية ثانية او امتداداً لمدينة القسطنطينية . والى
 هذه المدينة الجديدة انتقل مركز الحكم والامارة

وقد تم بنو طولون بالاستقلال بحصر عن دولة العباسيين ببغداد الا ان دولتهم دالت
 سنة ٢٩٢ هـ (٩٠٤ م) فأمر ابي خليفة المعتضد بالله العباسي عماله الذين جاءوا بعد الطولونيين
 بهدم القطائع وقصور بني طولون كراهةً فيهم وانتقاماً منهم . فاكثرت هؤلاء الهالكين بهدم
 القصور وتوكلوا القطائع والجامع على حالهما فبقيت طامة زاهرة اكثر من فرق بعد زوال
 حكم مؤسسها

ولما زال حكم الاخشيديين وامتلك الفاطميون مصر انشأوا القاهرة شمالي القسطنطينية .
 واتخذها خلفاً لهم طامعة جديدة لمنكهم ومقراً لهم وحاشيتهم دون سواهم . اما طوائف العسكر
 والتجار والعمال فكانوا يسكنون القسطنطينية . ثم اخذ الناس يقدون على القاهرة آناً بعد آناً
 حتى كثرت القسطنطينية . وفي الواقع ان قيام القاهرة امتد هذه العاصمة القديمة ونضى عليها
 تدريجاً فكانت القاهرة كما تقدمت خطرة في سبيل الاتماع والعران تفهقرت القسطنطينية
 بجانبها خطرة الى الوراء في طريق التدهور والانهطاط حتى قال ابن سعيد (ومنذ بنيت
 القاهرة ضعفت مدينة القسطنطينية وفرط في الاضطراب بها بعض الاقراط)

ومما عجبت في خراب القسطنطينية امران (اولهما) الشدة العظمى التي كانت في خلافة المستنصر
 ابتداء من سنة ٤٤٦ هـ (١٠٥٤ م) حيث ارتفعت اسعار الحاجيات واشتد الفلاء وكثر الوفاء
 بالقاهرة والقسطنطينية مما سبب الفتنة الكبيرة التي خرب بسببها القطر بأكمله ومهاجرة
 جانب عظيم من سكان القسطنطينية التي تحلّى عنها محابياها . فأخذوا كل ما وصلت اليه ايديهم
 من مواد البناء ونقلوه الى القاهرة حتى خرب معظم القسطنطينية والعسكر والقطائع

والثاني — حريقها في وزارة شاور بن مجبر السعدي لسبب التنافس على الوزارة بينه وبين
 خرفاهم ثم تدخل اموري ديولوزينيان مستعصراً لشاور سنة ٥٦٢ هـ (١١٦٦ م) واعتزامة بعد ذلك

بستين غزو القسطنطينية فصار إليها حتى بلغ ركعة الحرس بعد ما استولى على بلبيس
وفي ذلك الوقت كان أكثر المسكر والتقطيع خالياً من السكان بخلاف القسطنطينية فإنها وإن لم
تكن على عهدنا الأول من القوة إلا أن سكانها كانوا غير قليلين . وقد لم يسع شاور الدافع
عنها أمر بإخلائها وحرقها . وهنا ندع المقرري بتكلم فيقول : —

(فنأدى شاور بمصر أولاً بقم بها أحد وأزعج الناس في النقل منها فتركوا أموالهم ونجوا
بأنفسهم وأولادهم وقد ما ج الناس واضطربوا كأنهم خرجوا من قبورهم إلى الحشر لا يبعاً والله
بولسه . ولا يلتفت إلى أخيه . وبلغ كراه الدابة من معر إلى القاهرة بضعة عشر ديناراً . وكراه الجمل
إلى ثلاثين ديناراً . وزلوا بالقاهرة في المساجد والحمامات والأزقة وعلى الشرفات نفاذوا مطروحين
بنيانهم وأولادهم وقد ملحوا سائر أمراءهم . (إلى أن قال) وبث شاور إلى مصر بعشرين
الف قارورة نسط وعشرة آلاف مشعل نار فرق ذلك فيها فارتفع لهب النار ودخان الحريق إلى
السماء فصار منظرًا مهولاً فاستمرت النار ثلثي على مساكن مصر من اليوم التاسع والعشرين
من صفر لعام أربعة وخمسين يوماً . ومن ثم تحولت مصر القسطنطينية إلى تلك الأطلال المعروفة
الآن بكيمان مصر

وبعد أن أوقد شاور النار في القسطنطينية التجأ إلى القاهرة . ولم يتمكن أموري من الاستيلاء
على مصر لأن صلاح الدين كان قد ظهر في عالم الوجود وأضحى سيد مصر واستولى على الشام

وفي القرن التاسع الهجري لحص القسطنطينية المحن التي زلت بالقسطنطينية (إلى أن قال) : —
(وبعد حريق شاور زائد الخراب وكثير الخلو ولم يزل الأمر على ذلك في تهقر أمره
(القسطنطينية) إلى أن كانت دولة الظاهر بيبرس أحد ملوك الترك بالبلاد المصرية فصرف الناس
همتهم إلى هدم ما خلا من أخطائه والبناء بأقاضه بإسحل النيل بالقسطنطينية والقاهرة وزايد
المهدم فيه (القسطنطينية) واستمر إلى الآن حتى لم يبق من عماراته إلا ما بإسحل النيل وماجاوره
إلى مايلي الجامع العتيق (جامع عمرو) وما داني ذلك ودرت أكثر الخطط القديمة وعلى رسمها
واضعحل ما بقي منها وتغيرت معالمها

واليوم ونحن في منتصف القرن الرابع عشر الهجري . لم يبق من القسطنطينية الأصلية إلا
كيمانها انقائم فيما بين النيل والمنظوم وما نسميه اليوم منظر القديمة لا يمكن اعتباره من بقاياها
فإن المنطقة المحصورة بين خط سكة حديد حلوان شرقاً ووسطه النيل الشرقية غرباً لم تظهر
إلى عالم الوجود إلا في أواخر القرن الرابع الهجري بعد ما تحول النيل من مجراه الأصلي
شرقاً إلى مجراه الحالي غرباً . وسبحان من لا يتحول إلا